

# جمالية قصيدة النثر

◆ عبد الهادي فنجان الساعدي

شاعر عراقي



وقصيدة النثر "مستعارة من النثر العادي الذي يخلو من البهجة أو الزخرفة ولكن كلماته مشحونة بقوة خفية يسري عبرها التيار الشعري كما يسري التيار الكهربائي عبر سلك غليظ يغرقنا بالنور فجأة" (1).

لقد أصبح اليون شاسعا بين القصيدة الكلاسيكية وقصيدة النثر لأن الجيل الجديد قد انقطع عن كل تلك العصور الجاهلية والأموية والعباسية القديمة بعد أن كان يغرف من تلك التجارب الثرة وتلك الثروة العظيمة التي كانت بمثابة الخزين الحضاري الهائل الذي كان يُموّن كل الأجيال في التاريخ الحديث بما يحتاجونه من مفردات وتجارب وبحور وصور وكل ما يمت إلى الحياة الثقافية بصلة. وبدأ يسبر غور التجارب الغربية يدفعه إلى ذلك تصور عقيم بان تلك التجارب سهلة وفي متناول يد الشاعر المبتدئ وكان الطرق ممهدة وميسرة وبذلك يسلكها دون عائق وكانت نقلة الشعراء الشباب سريعة مما ترك آثارا سلبية على مجمل حركة الشعر في العراق.

نعود إلى مقدمة الكتاب حيث "أنا بإزاء ميدان غامض الحدود والمعالم يثير عندنا أحيانا الحنين والشوق للشعر الكلاسيكي الذي يناقضه تماما. كان العصر الكلاسيكي يمقت قصيدة النثر ويرى فيها نوعا هجينا ووحشا لا يطاق. بيد إن نهاية القرن الثامن عشر والعصر الرومانسي ثارا على الفصل القاسي بين النثر والشعر وسلمنا بان الشعر لا يكمن في أي شكل محدد "مسبقا" كما لاحظ البعض إن "فن النظم الشعري" لا يكفي لصنع شعراء. وان النثر على العكس، قابل للشعر. يقول دي بوس "هناك الكثير من القصائد

إن قصيدة النثر هي وليدة الشعر الحر. فقد ولدت بعد إرهاصات كثيرة وتجارب مرة استمرت عشرات السنوات حيث وضع الشعراء في العراق أسس الشعر الحر ضمن سياقاته العالمية وأضافوا له الكثير من رموز المنطقة ومن تجارب فاقت الوصف. فلقد تعرض شعراء الشعر الحر الأوائل إلى الالم كثيرة ولكنها كانت طبيعية لكل عمل ثوري يخرج على الأنماط القديمة الأصلية والتقليدية.



المثال عجزت لدى الواقع والتغيير مما أوقعها في اللغة والشكل المحدد والبقاء ضمن الأشكال الأدبية (4).

إن شعراء قصيدة النثر يبحثون في المطلق ضمن إمكانيات محدودة. إن لقصيدة النثر آفاقاً واسعة ولكنها صعبة المنال ضمن تلك الإمكانيات المحدودة.

وقد علق على ذلك الناقد خضير ميري حيث قال "تعاني قصيدة النثر من التدهور والانحلال والتفكك وذلك ناتج عن ضعف اطلاع جيل الشباب على تجربة كتابة قصيدة النثر في ثقافتنا العراقية. هذا من جانب ومن جانب آخر فإن معظم الذين يكتبون قصيدة النثر اليوم هم ناسخون مقلدون لتجارب العرب والعالم. إن شعراء قصيدة النثر يعانون من ضعف الأسلوب مستسهلين الأنماط السائدة في قصيدة النثر، وهي تلك الأنماط التي حاولت استثمار أزمة الواقع العراقي في زمن الحصار والكتابة عن ذلك بفجاجة إلى درجة الهبوط إلى اليومية العادية أو

الجميلة بلا أبيات شعرية. كما إن هناك الكثير من الأبيات الشعرية التي تخلو من الشعر" (2).

إننا هنا بإزاء مفاهيم ثقافية غربية وتجارب قاسية ومتميزة حيث الصراع ما زال قائماً بين الثقافة الكلاسيكية وبين المدارس المستحدثة وخصوصاً الرومانسية التي استطاعت أن تشق طريقها عبر جبال من الآثار الكلاسيكية التي خلفتها أجيال من الشعراء حيث كانت الانتقالات قاسية ولكنها ضرورة تحتمها التحولات الصناعية والاجتماعية التي طرأت على أوروبا في ذلك الوقت.

"وهكذا انصب جهد الشعر الفرنسي كله منذ الرومانسية على تحطيم اطر التقاليد القديمة والمبادئ التي كانت تختنق فيها الروح الشعرية: القافية، الوزن، البحر والقواعد الصارمة للشعر الكلاسيكي. وأدى التمرد على سلطان الأشكال الجامدة التي تحول دون أن يخلق الشاعر لذاته لغة فردية، وتضطره إلى أن يصب مادته اللدنة في قوالب جاهزة، إلى ثورة الرومانسية على الكلاسيكية، ثم ظهور الشعر الحر عند الرمزيين فميلاد قصيدة النثر وكثيراً ما تم الخلط بين قصيدة النثر والنثر الشعري" (3).

إننا ندين بهذه التوضيحات والمقدمة المفعمة بالروح الشعرية، إلى الدكتور زهير مغامس الذي أثارنا بهذه المقدمة القصيرة، بالكثير مما نعرفه ومما لانعرفه عن قصيدة النثر وعن تاريخ الشعر الأوربي ولو بشكل مختصر ولكنه غزير ولغرض إتمام الفائدة فقد أوجز لنا في آخر مقدمته كل ما تمتاز به قصيدة النثر من وجهة نظره.

"وتمتاز قصيدة النثر بالإيجاز، والوحدة العضوية والاستقلالية في تكوين عالم قائم بنفسه. وقد صارت بهذه الصفات نوعاً أدبياً متميزاً اسمه قصيدة النثر. وزادت في مطامحها أن تمضي وراء اللغة وأن تحطم الشكل وأن تهرب من الأدب. ولكنها إذا أبعدت في هذه المطامح من

مع هذا الحدث المثير وتأثيره على الساحة الأدبية. ومن خلال الدراسة - مادة البحث - نجد إن هناك مبدآن لقصيدة النثر وينتج عنهما عنصر ثالث هو "صيغتنا قصيدة النثر".

1- المبدأ المزدوج لقصيدة النثر.

2- قطبا قصيدة النثر: التنظيم الفني والفوضى المدمرة.

3- صيغتنا قصيدة النثر.

"ولدت قصيدة النثر من رغبة في التحرر والانعتاق من تمرّد على التقاليد المسماة شعرية وعروضية وعلى تقاليد اللغة" (7).

لقد حاول المهتمون بهذا النشاط النثري والشعري المزدوج إخراج القصيدة من مبدأ "النظام الشعري" إلى عالم النثر الفني بإيجاد صياغات وأساليب فنية نثرية، وعلى اثر ذلك ولد "أسلوب نثري" و "إيقاع شعري" أصبح من الواجب على القصيدة أن تستخلص من نتائج شعرية ذات أسلوب جديد تماماً.

والنثر هو نقيض الشعر حيث انه يمقت القوالب الجاهزة وسوف تهرب قصيدة النثر بكل ما استلبته من الشعر مبتعدة عن كل قوالب وألفاظ شعرية مفخمة سالكة طريقا خاصا بها من خلال حفرها سبلا في الصخر حيناً وفي الوادي حيناً آخر لتأخذ خصوصيتها من خلال "الحدث" و "الحدائث".

"إن شعر القرن العشرين هذا لا يستطيع أن يجد شكله إلا في الشعر الحر أو في قصيدة النثر. وهما وحدهما يستطيعان استقبال مفردات حديثة وواقعية" (8).

مهما تكن صحة وجهة النظر هذه إلا إنها تمثل الفكر الأوربي الحديث ونحن في حالة انسياقنا وراء هذه النظرة نجد أنها لا بد أن تكون صحيحة، ولكن في حالة عدم الانحياز نجد أن وجهة النظر بحاجة إلى أعوام قادمة أخرى لتثبت صحتها وتثبت أنها وجهة نظر سليمة من حيث

التحريفية الملوّزة واستخدام سرديّة نثرية أكثر منها شعرية" (5).

نستخلص مما سبق إن التجربة الشعرية تحتاج إلى مخاضات عديدة وتجارب عميقة لا يمكن أن تكون سهلة بالمعنى الدارج إنما هي تراكمات حضارية يحصل عليها الشاعر من خلال القراءة المستمرة والمغنية إضافة إلى موهبته الشعرية. ففي عصرنا الحاضر الموهبة وحدها لا تصنع شاعراً والقراءة وحدها لا تصنع شاعراً إنما الموهبة تغذى بالقراءات المستمرة التي تنضج موهبة الإنسان وتهيأ له سبل الإنتاج الشعري الذي ما إن يمتزج بالتجربة الإنسانية حتى نرى ذلك النور العظيم يشع من خلال قصائد تحتوي على جمال الصورة إضافة إلى احتواءها على الرنين الذي يجد صداه في داخل نفس المتلقي. والتعبير هنا قد يكون بقصيدة النثر وما أسلفناه من الشروط يصبح واجبا أيضا فقصيدة النثر ليست سهلة المنال كما يبدو لأول وهلة إنما فيها من الخصوصية ما يجعل الدخول في عالمها كالدخول في متاهة لايسير أغوارها إلا الشاعر المتحصن بالثقافة الثرة والتجربة الشعرية والإنسانية العميقة.

"قصيدة النثر اتحاد غريب يتضمن جميع المتناقضات، أ فليس المنثور هو نقيض الشعري في اللغة الدارجة؟.. وقصيدة النثر في الواقع مبنية على المتناقضات ليس في شكلها فحسب إنما في جوهرها أيضا، نثر وشعر، حرية وصراحة، فوضوية مدمرة وفن منظم ومن هنا يبرز تباينها الداخلي وتنبع تناقضاتها العميقة الخطيرة - والغنية ومن هنا ينجم توترها الدائم وحيويتها" (6).

هنا يتبين لنا التناقض الغريب في تكوين قصيدة النثر وفي تكون نظرية "تلاقي الأضداد" وحدث ذلك التلاقي نادرا في الحياة العامة احد سمات هذه القصيدة فلا نملك هنا سوى أن نسير



### نولتير

تشكل دائرة وهي تدور باتجاه بعضها بعضا كما يحاور بعضها بعضا فتسجننا في دائرتها وهي تعمل على أن تبقينا في مكاننا. إنها تحاول أن توحى لنا بنسيان الزمن وإبعاده إن الانفعال الشعري هو نوع من الدوران يتكون فينا عن طريق بركة أزيلية وسط هرب الأشياء نفسه" (12).

هاهم يكتبون عن بضاعتهم بنفس الطريقة الشعرية وأنت تقرأ ما يكتبون عن قصيدة النثر تحس بأنهم يكتبون القصيدة نفسها. إن ما نريد التعبير عنه في قصيدة النثر يمكن أن يُحس بدل أن يُقرأ ونص ريفيرا خير مثال على ذلك. وعندما نخرج على تعريف قصيدة النثر نجد إن معظم النقاد قد اتفقوا على "إنها قطعة موجزة، موحدة، ومكتفة كتلة من البلور" (13).

ونستطيع أن نوجز كل ما قلناه وما استقيناه من خلال المقطع التالي الذي يصف قصيدة النثر والقصائد الأخرى بأنه "ليس تناقضا بين مدرستين" شعريتين ولكن بين عائلتين ذهبيتين يظهر في كل ميادين تطور الخلق ويجعل من قصيدة النثر حقيقة معقدة لا يمكن ردها إلى شكل

الفعل ورد الفعل.

"وكرد فعل مناوئ للمفردات "السامية" للشعر الكلاسيكي فقد أصبح شاعريا في هذه الأيام أن نقول "حصان" بدل أن نقول "جواد" و "بحر" بدل أن نقول "اليم" (9).

"وكذلك يدخل ما هو خيالي في نطاق قصيدة النثر أكثر مما لو كان ذلك في نطاق القصيدة الشعرية نظرا لما ينطوي عليه من عناصر فوضوية متمردة على قوانين الطبيعة" (10).

إن لكل مدرسة فنية أو شعرية أصولها ومتطلباتها وحتى كلماتها التي تستعملها- أما من ناحية الخيال فحتى المدرسة الواقعية قد تستعمل الصور الفنية المتخيلة بدلا من الصورة الواقعية لأن تلك الصورة تمثل عين الفنان والاختلاف هنا هو في مدى استعمال الخيال في قصيدة النثر عن القصائد الشعرية، وهي مسألة نسبية في رأينا، وقد تكثر هنا وتقل هناك أو العكس.

"كلية التأثير والمجانية والكثافة هي المصطلحات التي تؤكد لنا إن القصيدة هي عالم مسور مغلق على نفسه ويكتفي بذاته. إنها في الوقت نفسه كتلة مشعة مشحونة بحجم صغير بلا نهاية من الإيحاءات وقادرة على أن تهز كياننا من أعماقه" (11).

إنها صورة موجزة وحقيقية عن قصيدة النثر التي تمتلك كل تلك الصفات الموزونة والمليئة بالشحنات الإنسانية التي باستطاعتها أن تقدم لنا صورة شفافة ومليئة بالحيوية نستطيع في ذلك الوقت أن نقول عنها إنها "شيء" و"شيء ضروري دخل حياتنا الثقافية وأعطى وسيلة أخرى إضافية من وسائل التعبير الإنساني.

كتب ج. ريفيرا يقول "في قصيدة جميلة لا يوجد تقدم أبدا فالنهاية هي بنفس مستوى البداية وإننا نصل بها مباشرة وكل شيء على مستوى واحد وبالتقارب نفسه. والإبيات الشعرية

مخزوننا في ذاكرته فحاول أن يستفيد منه في تجربته المجنونة لذلك أضاف بعض الملامح أو الصيغ الفنية التي حاول من خلالها أن يكبح جماح قصيدة النثر لتأخذ شكلا تنظيميا إضافة إلى روحها المتمردة فأصبحت بهذه الخصوصية. هذا على العموم أما على الخصوص فهناك ميزة اللغة الخاصة بها والمجاهل التي تغور فيها عوالم خاصة بها تكون أكثر بهاءً وإشراقاً.

”وفي صلب مفهوم قصيدة النثر نفسه يتأصل الاتجاهان المتناقضان اللذان سيوجهان وقيمان المادة الشفاهية التي تولد صيغتين فنيّتين متناقضتين: هما ”القصيدة الشكلية“ إلى ”قصيدة الإشراق“ وسوف نرى نتائج الشعراء النثرين تتأرجح تبعاً للأفراد والعصور“ (16).

لقد بدأت قصيدة النثر تأخذ أشكالها وأبعادها الحسية وأخذت تتشكل وتأخذ أطرا حتى لو كانت هذه الأطر تمردية أو فوضوية أو حتى أطر تعتمد في تشكيلها على الأزمنة القديمة. ومن خلال الفصل السابق نستنتج صيغتين لقصيدة النثر وهما القصيدة الشكلية والقصيدة الإشراق.

1- القصيدة الشكلية: هي التي تفرض على الوقت بنية أو أشكالا إيقاعية منتظمة.  
2- القصيدة - الإشراق: هي التي تمحو حدود المكان والزمان.

لقد كتب الشاعر الفرنسي المبدع اراغون ”في عصر السريالية الأكثر طموحا إن ”الحرية تبدأ هناك حيث يولد المدهش“.

إن هذه القصيدة تحاول اجتناب القارئ وتخليصه في آن واحد من الحمل المضني للزمن ومن العادات المنطقية وانتزاعه من قيود هذا الكون لإعطائه انطبعا بعالم آخر وانتزاعه من قيود هذا الكون لإعطائه انطبعا بعالم آخر غريب، مدهش حيث الإنسان المهوب بطاقات جديدة قد يسيطر على المادة اللدنة بدلا من أن يخضع

تنظيم شعري ”واحد“ إلى مسعى ”واحد“ ولا يتغير على الدوام. إن الشاعر الذي يعمل على هذه المادة الأولية التي هي الجملة النثرية فانه سوف يصوغها على الصورة التي يجب ويطبوعها بطابعه الخاص فاما إنه يحصرها في أشكال محددة أو انه يثير ”طغمة المفردات“ وهو يرمي إلى كمال جامد، إلى حالة من النظام والاستقرار - أو إلى لا تنظيم فوضوي للكون يستطیع أن يستنبط عالما آخر من وسطه“.

إن هذا الكم الهائل من وجهات النظر يكاد أن يصل بنا إلى مرحلة النظرية الشعرية حيث تأخذ قصيدة النثر مداها النظري الذي يستطيع من خلاله القارئ أن يستجلي القصيدة المستقبلية. ”وربما بعد مدة طالت أو قصرت سيأتي من يدرس هذه التجربة بعمق وتستبعد الطارئین عليها ليضع ملامح واشتراطات وربما أوزان خاصة“ (14).

2- قطبا قصيدة النثر: التنظيم الفني والفوضى المدمرة.

”مما لا شك فيه انه يوجد في قصيدة النثر- في آن واحد قوة فوضوية مدمرة تحيل إلى رفض الأشكال الموجودة وقوة منظملة تميل إلى بناء وحدة شاعرية: ومصطلح ”قصيدة النثر“ نفسه يميل إلى هذه الثنائية. إذ أن من يكتب بالنثر يتمرد على التقاليد العروضية والأسلوبية. ومن يكتب قصيدة يرمي إلى خلق شكل منظم مغلق على نفسه ومنفصل عن الزمان، يوجد تمرد في نقطة بداية قصائد النثر كما إن هناك شكلا فنيا في نهاية ”الإشراقات“ (15).

لقد ولدت قصيدة النثر خلال فترة تمرد ثقافي أتاح للشاعر فضاءات لا محدودة كالسجين الذي يهرب من زنزانه إلى عالم فسيح ووديان لاحصر لها مما يشكل له تمردا فوضويا بدل أن تكون حرية بحدود معينة ولكنه عندما وصل إلى التيه في تلك الفلاة الموحشة استذكر كل ما كان



### مولير

أنواع العناصر التي لا يحصل عليها التحليل العقلاني المنطقي إلا بشكل مجزأ ومن فكرة التأليف والاتحاد تلك سوف ننقل إلى فكرة الرمز لنلاحظ إن قصائد النثر الجميلة لها على الدوام تقريبا طابع رمزي: شريطة أن تأخذ كلمة "رمز" لا بالمعنى الضيق للترجمة المجازية لفكرة ولكن بمعناها الأوسع للتعبير المجازي بلا شك (19).

بوصولنا إلى المرحلة الموازنة تلك تكون قد قطعنا شوطا طويلا مع قصيدة النثر إذ أخذت شكلا جديدا في مجال الشعر وبدأت تعبر عن مرحلة تتسم بالعبثية والخروج عن كل ما هو مألوف وقد اتسمت هذه القصيدة أيضا باستعمالها للرمز. ذلك الرمز الذي انبثق مع الشعر الحر وكان احد مرتكزاته الأساسية إلا أن الرمز هنا يأخذ مناحي أخرى. فهو يخرج مع الشاعر إلى الفلاة ليمارس حريته المنغلقة ضمن سياقات القصيدة الجديد. لقد اتخذ التعبير صورة أخرى للقصيدة فليس المهم أن تكتب القصيدة بطريقة الشعر أو النثر إنما المهم أن تحتفظ بذلك النغم الجوهرية الذي يمنحها

لقوانينها" (17).

إننا نحاول أن نقرب أكثر فاكث من روح هذه القصيدة التي ولدت في عصر جنوني أغرقها في الكثير من العوالم الغيبية حتى لقد أصبح الغموض يلزم الكثير من نتاج الشعراء المحدثين بالرغم من أنها لا تبني على الغموض إنما تبني على القدرات التي تنقل الإنسان من عالم صغير إلى عالم أوسع بموجب مفردات عادية ولكن بطرق وصيغ تبعث على الإدهاش والغرابة. إنها تسبر أغوار المجهول بأشكال وأنماط جديدة وقد تستعمل الفضاءات والفراغات وبأساليب لا تخضع لعادات الفكر المنطقي ولا تخضع لعادات اللغة.

"وفي المقام الأول نرى تشكل ثريات من الكلمات، عناقيد من الكلمات تسهم واحدة منها إما في تقوية الانطباع نفسه وخلق "جو" خاص أو في تفجير غير متوقع باصطدام الإيحاءات المتناقضة "الجمر والزبد" في قصيدة "متوحش" لرامبو وفي المقام الثاني تنظيم هذه الثريات، وتدخل في علاقات بموجب قوانين علم الفلك الخاص بكل قصيدة. إن كل قصيدة مهما كانت متحررة من الفكر العقلاني لها منطقتها الداخلي ويمكن أن يتحدد المنطق بأكثر الجنون غرابة - وهذا الاقتران يولد أعمالا عبقرية" (18).

انه عصر مجنون ولدت فيه أكثر الأعمال الفنية غرابة وفي كثير من الأحيان نرى هذه الأعمال تسبر غور العبقرية الفذة أحيان أخرى نرى بساطة حد السطحية وفي الحالتين هناك إما شكل متوهج أو إشراق يصل بنا حد الإدهاش.

ولكننا في أغلب الأحيان نحس عميقا في تلك القصيدة "العابثة" و "المفككة" بموجب الأحكام الكلاسيكية، بانتظام صلات وعلاقات دقيقة بين الكلمات والصور التي تنتظم عبرها الفكرة الشعرية بحيث إن النتاج المكمثل يبدو وحدة واحدة كاملة وتركيبا تجمع في "إيحاء أي" كل

أصالتها.  
 "ولننسى فضلاً عن ذلك انه في أصل أية محاولة لقصيدة النثر هناك إرادة في تحويل شكل جديد، فردي في آن واحد فوضوي فيما يتعلق بالأشكال الموجودة وفني في تنظيمه للنثر في قصيدة" (20).  
 إن قصيدة النثر لم تأت اعتباطاً وإنما كانت نتيجة مخاضات في مجال الفن والأدب والسياسة والاجتماع وقد ولدت بغرابة مشابهة تماماً لغرابة الفترة الزمنية التي ولدت فيها. إن لشعرائها دوراً كبيراً في صياغة النظرية التي أصبحت بموجبها قصيدة النثر موجودة ولا أقول مقبولة في عالم يرفض كل ما هو عقلائي.  
 "وباختصار أقول لكم إن بؤس الكتابة الشعرية ناتج عن ضحالة القراءة" (21).  
 وإذا عدنا إلى واقعنا الثقافي في العراق فإننا سنرى هناك تجارب كثيرة لشعراء شباب مجيدين إلا من الزمن هنا زمن قتل وهناك حيث ولدت قصيدة النثر كان زمن جنون وهناك فرق شاسع بين القتل والجنون.

1- مقدمة كتاب جمالية قصيدة النثر.  
 2- نفس المصدر.  
 3- نفس المصدر.  
 4- نفس المصدر.  
 5- جريدة العراق العدد 7623 في 11/6/2002.  
 6- جمالية قصيدة النثر ص 6.  
 7- نفس المصدر ص 7.  
 8- نفس المصدر ص 9.  
 9- نفس المصدر.  
 10- نفس المصدر.  
 11- نفس المصدر ص 16.  
 12- ج. ريفيرا: كاتب فرنسي وشاعر وناقد وله دراسات كثيرة منها "رواية المغامرات" التي نشرتها مجلة "المجلة الفرنسية الجديدة لشهر مايس، حزيران، تموز 1913".  
 13- جمالية قصيدة النثر ص 20.  
 14- جريدة العراق العدد 7623 في 11/6/2002 الشاعر منذر عبد الحر.  
 15- جمالية قصيدة النثر ص 23.  
 16- نفس المصدر ص 29.  
 17- نفس المصدر ص 37.  
 18- نفس المصدر ص 42.  
 19- نفس المصدر ص 43.  
 20- نفس المصدر ص 46.  
 21- جريدة العراق العدد 7623 في 11/6/2002 الشاعر منذر عبد الحر.

## الهوامش